شرح قصيدة ألا يا صبا نجد

لم يكن الشاعر ابن الدمينة هو الشاعر النجدي الوحيد الذي سلب قلبه وسرق عقله هواء نجد العليل ونسائمه الناعمة وغيومه البيضاء الصافية، فقد كان ذلك الهواء العليل مصدر إلهام للشعراء الذي كانوا يكثرون من ذكره في قصائدهم ويمزجون بينه وبين هواهم وحبهم للمحبوبة، والشاعر ابن الدمينة من هؤلاء الشعراء الذين كتبوا قصيدة ذكروا فيها ذلك الهواء وأنه يذكرهم بالمحبوبة، وكان لقصيدة ابن الدمينة التي يقول قي مطلعها ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد نصيب من الشهرة لم تنله غيرها من القصائد النجدية، وفي هذه القصيدة يقول الشاعر:

- ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد

يسائل الشاعر رياح نجد العليلة ويسألها متى هبّت لكل الرياح من أرض نجد فالصبا ريحٌ مَهَبُّهَا من مَشْرِقِ الشَّمْسِ إذا استوَى الليلُ والنهار، وهبت أي ثارت، فقد أيقظتِ أيتها النسائم العليلة مشاعر الحب والشوق في قلبي إلى الأحبة الذين كانوا يسكنون في هذه الأرض.

- رعى الله من نجد أناسا أحبهم فلو نقضوا عهدي حفظت لهم ودّي

حفظ الله أولئك الأحبة الذين كانوا يسكنون في أرض نجد، والذين سأحفظ حبهم وعهدهم ما دمت على قيد الحياة، فلو أنهم خانوا العهود التي بيننا ونسوا محبتي فأنا لا يمكن أن أخون تلك الوعود والعهود وسأظل مخلطاً لها طول العمر ولن ينقطع ودي لهم أبداً.

- سقى الله نجداً والمقيم بأرضه سحاب غواد خاليات من الرعد

حفظ الله أرض نجد والمقيمين بأرض نجد وسقى الله الأيام التي كنا فيها عندنا كنى نرى تلك الغيوم البيضاء الصافية التي كانت تغدو في السماء فتهب معها النسائم العليلة وقد كانت هذه الغيوم شديدة الصفاء ناصعة البياض، لا يتوقع منها حدوث الرعد أو العواصف القوية.

- إذا هتفت ورقاء في رونق الضحى على غصن غضّ النبات من الرند

فإذا ما سمعت اليوم صوت حمامة تغرد فوق غصن غض من نبات الرند في وقت الضحى، لم أتذكر إلا أيامي في نجد وأصوات الحمام التي كانت تغرد فيها.

- بكيتُ كما يبكي الوليد ولم أكن جليداً وأبديت الذي لم أكن أبدي

وعندما أسمع صوت تلك الحمامة التي تغرد، تنهال من عيني الدموع وأبدا بالبكاء مثل الطفل الذي يولد حديثاً، ولم أستطع أن أخفي الوجد الذي في داخلي وأن أظهر الوجد والصبر وإما يظهر منّي ما كنت أخفيه على الناس ولا أبديه لهم.

- إذا وعدتْ زاد الهوى بانتظارها وإن بخلت بالوعد مُتّ على الوعد

فتلك المحبوبة التي تذكرني بها رياح نجد كانت إذا وعدتني بالوصال ازداد الشوق في قلبي لملاقاتها وثارت نيران الحب بانتظارها، وإذا بخلت عليّ بالوعود وسوّفت باللقاء أموت على أن أنال منها وعداً أو أحصّل منها موعداً للقاء.

- وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وأن البعد يشفي من الوجد

وكان الناس يقولون قديماً بان المحبّ دنا ممن يحب وطال مكوثه بجانبه وكان يراه في كل يوم فإنّه يملّ من ذلك المحبوب، وأن الابتعاد عنه يمكن أن ينسيه وأن يشفي الشوق الذي يعانيه المحب.

- بكلٍ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خيرٌ من البعد

وقد جربت كلا الطريقتين، فتارةً كنت قريباً من المحبوبة أراها في كل يوم، وتارة كانت الأيام تبعدني عنها، وفي كلتا الحالتين لم أجد شفاء للوجد والشوق الذي يهيمن على قلبي، ولكنني أؤمن بان الاقتراب من ديار المحبوبة أفضل من الابتعاد عنها.

- على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواهُ ليس بذي ودِ

ولمن رغم ذلك، إلا أن هذا القرب من ديار المحبوبة لن يكون نافعاً للقلب ولن يشفي ما به من وجد إذا كان المحبوب ليس له عهد ولا ودّ تجاه المحب.